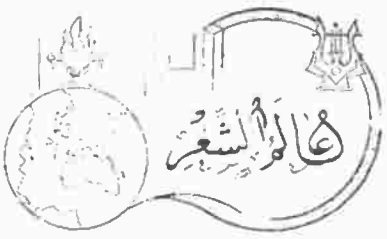

برسى بيش شلى

١٧٩٢ — ١٨٢٢ م .

آراؤه فى الذّود عن الشعر

(٣)

والتجربة الحديثة تمزج المسلاة بالمأساة مع أنها معرضة إلى الخطأ من حيث وجهة الاستعمال إلا أنها من غير شك توسيع للدائرة المسرحية . ولكن المسلاة يجب أن تكون فى رواية الملك لير شاملة وكاملة وتصوّرية ، وربما كان دخول هذه النظرية التى ترجح جانب الملك لير King Lear على Oedipus Tyrannus أو Agammemnon أو إن أردت الثلاث الروايات التى ترتبط بها ما لم يعتبر الافراط فى قوة الشعر المنثور لا سيما فى الأخيرة كمجدّد للتوازن .

فالملك لير — لو احتملت هذه المقارنة — يمكن أن تعتبر أكمل عمل من حيث الفن تمثيلى وُجد حتى الآن على الرغم من الحالات الضيقة التى خضع لها الشاعر لجهله فلسفة الدراما التى عمّت أوربا الحديثة فكالدين Caldeon فى روايته الدينية Autos حاول أن يدخل بعض الحالات السامية فى التمثيل المسرحى التى أهملها شكسبير كأن يربط الدرامة بالدين ويلائمها للموسيقى والرقص ولكنه يهمل ملاحظة بعض الحالات الأكثر أهمية وما يفقد أكثر مما يكتسب .

ولكنى أستطرد فأقول إن علاقة أشكال النظر بسلامته أو فساد أخلاق الناس قد باتت واضحة تماماً أى أنه قد تبين أن وجود الشعر أو غيابه فى أكمل وأعمّ صورة مرتبط بالحسن والقبح فى الأخلاق والعادات .

فالدرامة فى أثينا أو فى أى مكان إخر وصلت فيه إلى درجة الكمال نمشت دائماً مع

عظمة العصر الأخلاقية والعقلية . ومآسى شعراء أثينا كالمرايا التى يرى فيها المشاهد نفسه من خلال ستار الحادثة الرقيقة مجردة من كل شىء إلا من الكمال الأعلى والنشاط اللذين يشعران كل إنسان بأنه النموذج الحقيقى لكل ما يعرف ويعجب وما يحب أن يكونه . فقد وسع الخيال باستعذاب الآلام والميل الى الأهواء والعواطف .

وفى الدرامة الممتازة نجد قليلا من الغذاء للكراهية والبغضاء فهى تعلمنا عوضاً عنها معرفة النفس واحترامها . فلا العين ولا العقل يستطيعان أن يريا نفسيهما إلا بالانعكاس على شىء يشبههما ، وما دامت الدرامة سائرة فى الافصاح عن الشعر فهى كالمرآة الكثيرة الجوانب المنشورية الشكل التى تجمع أبهى أشعة الطبيعة الانسانية وتقسمها وتبرزها كالصور الأولية وتخلع عليها جلالاً وجمالاً وتضاعف كل ما تعكسه .

ولكن فى عصور تدهور الحياة الاجتماعية تسأم الدرامات فى ذلك التدهور فتصبح المأساة تقليداً ممقوتاً لصورة روائع الادب القديم خالية من ذلك الذى يصحب دائماً سائر الفنون . الشعر سيف براق قد استل من غمده فهو يأتى على القراب الذى يحويه اذا عاد اليه ، ولذلك نشاهد أن كل الكتابات المسرحية التى من هذه الطبيعة ليست كثيرة التصور فى درجة ممتازة فهى تؤثر فى الشعور والعاطفة اللتين كانت تخلوهما من الخيال أسماء أخرى للهوى والميل وإن عصر تدهور الدرامة ذلك التدهور المهين فى تاريخنا هو عهد حكم شارلس الثانى الذى أصبحت فيه كل الصور التى كانت شعراً قد اتخذها لنفسه سبيلا فى الافصاح أناشيد انتصار لقوة الملكية على الحرية والفضيلة . وقد وقف ملتون وحيداً يضىء عصراً غير جدير به . فى مثل هذه العصور تطغى النظرية العقلية على جميع صور الفن التمثيلى ويقف الشعر عن الافصاح عنها وتفقد المسلاة (comedy) عموميتها السامية (universality) والفحش الذى هو دائماً كفران بجمال الحياة المقدس يصبح خلال النقاب الذى يتخذه أقوى تأثيراً ، فهو وحش يلتهم المجتمع المضطرب فى غفلة .

ولما كانت الدرامة تلك الصورة التى تحفى تحتها عدداً عظيما من طرق الافصاح فى الشعر كانت الرابطة بين الشعر والخير الاجتماعى أكثر ظهوراً فى الدراما منها فى أى صورة أخرى .

ومن المسلم به أن أقصى ما تبلغه الجمعية الانسانية من الرقى يرتبط بأقصى ما يبلغه من المهارة فى الفن التمثيلى . لذلك كان انحطاط أو اختفاء الدرامة فى عصر كان قد

ازدهرت فيه حيناً دليلاعلى فساد الاخلاق وتلاشى الملكات التى تعول روح المجتمع البشرى ، ويقول ما كيافلى عن التعاليم السياسية بأن الحياة يمكن أن تحفظ وتجدد لو استطاع الناس أن يهبوا لإرجاع الدرامة الى أسسها وهذا صحيح ينطبق على الشعر فى أقصى معناه فكل اللغات والتعاليم والاشكال لا يلزمها أن تظهر فقط ولكن يلزمها أن تستند على أساسها .

والحروب الداخلية التى اشتعلت فى بلاد الاغريق والغنائم التى غنموها من آسيا وفوز المقدونيين عليهم أولاً ثم الرومان ثانياً كانت كلها أمثلة على خمود او عقم ملكة الانتاج فيهم إذ كان كتاب المراعى الذين وجدوا تشجيعاً من الحكام المتأدبين فى صقلية ومصر آخر من مثل ذلك المجد العظيم فشعرهم آية فى الموسيقى كعبير الزنبق يغزو ويجهد الروح من فرط عذوبته بينما شعر العصر السالف كان كنسمات رياض الربيع التى تحمل فى هبوبها عبق سائر أزهار الروض مشبعا بروحها المنعش الموسيقى الذى يهب الاحساس قوة تكسبه بهجته المفرطة ـ وترى رقة فى الاحساس مساوية لتلك فى التأثير العواطف والاهواء فى كتابات هريدوس وسوفوكليس ، فالأول على وجه خاص قد ألبس الصور الحية المهيجة للعواطف ثوباً جذاباً فريداً وأفضليتهما على من أتى بعدهما من الشعراء فوجد فى هذه الافكار التى تتبع ملكات طبيعتنا الداخلية وليس غريباً أن تلك الافكار التى ترتبط بالخارجى منها واجادتها التى لامثيل لها توجد فى التوافق الكلى فهى ليست التى نجدها عند الشعراء الغزليين ولكنها هى التى لا نجدها عندهم وهى سبب حضورهم لا من حيث كونهم شعراء ولكن من حيث انهم لم يكونوا شعراء ويمكن أن يعتبروا على أى حال بأنهم قد افترنوا وعصرهم بفساد ولو كان هذا الفساد قد نجح فى اخماد حماسة الشعور والعاطفة والجمال التى نسبت اليهم كنقيصة كان فوزه حماسياً لأن غاية فساد المجتمع القضاء على كل شعور بالجمال ومن هنا كان فساداً ـ فهو يبدأ عمله فى الخيال والعقل باعتبارهما القلب ويوزع نفسه فى صورة سم قتال فى سائر الميول والأهواء حتى تصبح كلها عبئاً ثقيلا فلا يمكن للعاطفة أن تحيا بعد ذلك .

وعند اقتراب مثل هذا العصر يخاطب الشعر تلك الملكات التى تكون آخر ما يناله الفساد فيستجاب صوته الشعر . يبعث دائماً ذلك السرور الذى يكون الناس على استعداد لقبوله فهو لا يفتأ نور الحياة ومصدر كل جمال وبطولة وصدق فى عصر يلتهى عليه الشعر والفساد .

ويجب أن يقال إن أولئك الذين استمتعوا ببهجة شعر Thoeritus دون Syracuse والاسكندرية المترفين كانوا أقل جموداً وأقل حيوانية وهمجية ـ ولكن الفساد لن يخمد أنفاس الشعر حتى يأتى على دولاب المجتمع الانسانى أولاً ، إذ لن تنفصم حلقات تلك السلسلة المقدسة التى تسلسلت من عقل الى عقل وارتبطت بعقول جبارة حتى يهبط عليها ذلك المجرى الدافق الخفى فيبعث الحياة والقوة فى سائر أجزائها .

والشعر هو تلك الملكة faculty التى تحمل فى داخلها فى وقت واحد بذورها وبذور تجديد المجتمع . دعنا من تحديد آثار شعر العزليين وشعر الرعاة Bucolic فى دوائر احساس من وجه اليهم فقد يكونون فهموا ما فى تلك الآثار الخالدة من جمال وروعة فهمهم للمقتطفات والقصائد المتناثرة — أما أولئك الذين كانوا أرقى نظاماً فى معيشتهم أو وُجدوا فى عصر أكثر رخاء فيعدونها أمثلة قوية لشعر جيد ، وقد وجدت تلك الثورات فى أفق أضيق ـ مكانها فى زوما القديمة ، ولكن مظاهر وأشكال الحياة الاجتماعية لا تدل على أنها أشربت تماماً لبان الشعر ويظهر أن الرومان يعتبرون اليونان أنهم أغلى الذخائر لأحسن صور الأخلاق والطبيعة . ويظهر أنهم قد امتنعوا عن الابتكار فى تعبير قياسى — فى النحت والموسيقى وفى البناء — وكل شىء يتصل بحياتهم الخاصة بين ما يتصل بالنظام العام للعالم ، ولكن ربما كان حكمنا هذا مستنداً على دليل جزئى وربما كان فيه كثير من التحيز والمحاباة . Accius, Pacvius, Varro, Ennius كل أولئك كانوا شعراء عظاماً ولكنهم بادوا ، Lucretius مبتكر بأقصى ما تحمله تلك الكلمة من معنى وكذلك Virgil إلى درجة عظيمة جداً .

فالرقة البارعة التى اختارها الأخير للتعبير كالضباب الرقيق الذى يحجب عنا قوة وغزارة إدراكه للطبيعة والشعر عند Livy غريزة ولكن Ovid, catullud, Horace وغيرهم من شعراء عصر فرجيل رأوا الانسان والطبيعة فى مرآة اليونان .

كذلك التعاليم والدين عند الرومان كانت أقل شاعرية منها عند اليونان كالظل يبقى دائماً أقل ظهوراً من الجسم ذاته فلذلك نرى الشعر عند الرومان يميل الى الظهور بعد ـ من أن يسحب ـ النضوج السياسى ورقى سبل الحياة ، فشعر الرومان الحقيقى قد عاش فى تعاليمهم ، وكل ماتوفر لديهم من جمال وروعة وصدق يظهر فقط فى تلك الملكة التى تخلق النظام الذى يشملهم وان حياة Camillus وموت Regulus وانتظار أعضاء

السيناتو فى مواكبهم الفاخرة والقواد الذين رجعوا من الغال مكللين بالظفر ورفضهم الجمهورية لتعقد الصلح مع هانيبال بعد موقعة كاناى لم تكن هذه دلائل نظام سليم يكفل للفرد سعادته فى جميع مظاهر الحياة — فى نظر أولئك الذين كانوا فى وقت ما شعراء وممثلين لتلك الدرامات الخالدة . والخيال الذى شاهد جمال هذا النظام ، وكانت النتيجة قيام امبراطورية والثمرة شهرة خالدة — وهذه الاشياء ليست أقل شاعرية فهى مقدمة لتلك القصيدة الدائرة التى خطها الزمان فى حوافظ الرجال . فالماضى كالقاصّ الملهم يملأ مسرح الأجيال الخالدة بنغماتها المتوافقة .

وعلى ذلك فالنظام القديم للدين والاخلاق قد أتم ثوراته ، وان العالم لابدّ واقع فى فوضى وضلال شاملين . ولكن قد وجد شعراء بين واصفى أنظمة المسيحية والفروسية فى الأخلاق والدين فأوجدوا آراء وأحداثاً لم تكن معروفة من قبل أصبحت بعد أن رسخت فى أذهان الناس مرشدة لجيوش أفكارهم الضالة . وإنه ليبعد عن غرضنا الآن أن نتلمس الشرّ الذى أوجدته تلك النظم إذا لم نعلم ولدينا البراهين الراسخة أن هذا الفساد لا يمكن أن يعزى إلى الشعر الذى يحوونه . ومن الجائز جداً أن شعر أيوب وموسى وداود وسليمان وأشعيا كان له تأثير عظيم على عقل المسيح وتلاميذه فان المقتطفات المتناثرة التى وصلت إلينا بأولئك الذين كتبوا تاريخ ذاته الإلهية كلها مفعمة بالشعر القوى ولكن يظهر أن تعاليمه شوّهت سريعاً .

والشعرُ فى تعاليم يسوع المسيح وخرافات وتعاليم غزاة الدولة الرومانية من الكلت عاشت بعد الظلام والاضطراب الذين اقترنا بظهورهم وانتصارهم امتزجت فى صورة جديدة من الأخلاق والمعتقدات .

ومن الخطأ أن ننسب جهل العصور الوسطى « المظلمة » إلى التعاليم المسيحية أو إلى تغلب الشعوب الكلتية : فكل ما كان هناك من شر فى أفعالهم التى احتوته . والتى خلت من عنصر الشعر والتى ارتبطت بنمو الاستبداد والخزعبلات ، فأصبح الناس لأمور يتعذر شرحها هنا فاقدى الإحساس ومحبين لأنفسهم فقد ضعفت إرادتهم وكانوا مع ذلك عبيدها ثم عبيد الآخرين ، فالشهوة والجبن والبخل والقسوة والمكر قد صبغت قوماً لم يكن فيهم فرد زعيم بالابتكار فى الشكل أو اللغة أو التعليم ، وهذا الشذوذ فى أخلاق هذا المجتمع لا يمكن أن يلقى عدلا على إحدى الحوادث المرتبطة به ارتباطاً مباشراً ، ومن سوء حظ أولئك الذين لا يستطيعون التمييز بين الكلام والأفكار أن كثيراً من هذا الشذوذ أدخل فى ديننا العام .

وفى القرن الحادى عشر كانت آثار شعر المسيحيين ونظم الفروسية قد شرعت فى الظهور ، فنظرية المساواة عرفت وطبقت بواسطة أفلاطون فى جمهوريته كما أن القانون النظرى لذلك النظام الذى فيه عناصر اللذة والقوة التى جاءت بمهارة وفعل المخلوقات البشرية يجب أن يوزع بينها ، وقد أوصى هذا القانون بأن الحدود يجب أن تحدد بإحساس كل فرد أو بمنفعة الكل .

ولأتباع أفلاطون تعاليم : ففيثاغورس قد أوجد نظاماً أخلاقياً عقلياً فى تعاليمه شاملا فى نفس الوقت ماضى وحاضر ومستقبل حالة الانسان ، وجاء يسوع المسيح فأذاع للجنس البشرى الحقائق الإلهية الخالدة التى تضمنتها هذه الآراء وأصبحت المسيحية فى زبدتها التعبير الظاهرى للتعاليم الخفية لشعر القدماء .

والغاء الرق هو أساس أسمى أمل سياسى يمكن أن يتفهمه العقل وحرية النساء قد أوجدت الحب الجنسى وأصبح الحب ديناً فكأن تماثيل أبولو وعرائس الشعر قد عاودتها الحياة والحركة فتمشت بين عابديها وعمرت الارض بسكان عالم أسمى وأصبح المنظر المألوف وسير الحياة عجيباً سماوياً وقامت جنة على أنقاض جنة عدن وكما أن هذه الخليقة نفسها هى الشعر لذلك كان موجدوها شعراء وأصبحت اللغة أداة للتفاهم . وقد سبق سكان بروفنس بترارك صاحب الأشعار الشبيهة بالرقى التى تكشف عن أعمق ينبوع سحرى للسرور الذى يوجد فى ألم الحب . فمحال أن نشعر بها دون أن نصير جزءاً من ذلك الجمال الذى نتأمله . ومن نافلة القول أن نشرح كيف أن رقة العقل وسموه متصلة بتلك العواطف المقدسة تصير الناس ألطف وأسمى وأعقل وتنقشلهم من تلك السحب المتكاثفة فى عالم النفس الصغير . وقد فهم دانتى أسرار الحب أكثر من بترارك ، وروايته — Vita Nuova معين لا ينضب لصفاء الشعور وسمو اللغة فهى المثل الأعلى لتاريخ ذلك العصر ولحياته التى كرست للحب .

وإن تأليهه لحبيبته بيتريس Beatrice فى الجنة وتطورات حبه وحسن حبيبته الذى يتدرج به حتى يتخيل نفسه أنه صعد إلى عرش الخالق الأمجد هو أسمى وأروع خيال فى الشعر الحديث .

فالجنة أنشودة خالدة للحب الأبدى والحب الذى وجد شاعراً جليلا فى أفلاطون وحده دون سائر القدماء قد زفّ بجوقة من المرنمين من أعظم الشعراء من العالم

الحديث وتغلغلت الموسيقى فى صميم المجتمع ولا تزال أصداؤها تفر من صليل الأسلحة وأصوات الخزعبلات . وفى الفترات المتعاقبة نشر اريستو وتاسو وشكسبير وسبنسر وكالدرن وروسو وسائر الشعراء العظام من عصرنا الخاص سلطان الحب وغرسوه فى العقل البشرى كما لو كان تذكار نصر وغلبة على الحيوانية والبطش .

أما شعر دانتى فيمكن أن يعتبر قنطرة قائمة على مجرى الزمن الذى يربط العالم الحديث بالعالم القديم ، وإن تلك التصورات المشوهة لتلك الأشياء الخفية التى سما بها إلى العلا دانتى وقرينه ملتون ما هى إلا مجرد نقاب ولباس يمشى فيها أولئك الشعراء فى طريقهم الى الأبدية ، وانها لمسألة عويصة شاقة تلك التى تتطلب تحديد مدى شعورهم بالفرق الذى لا بد أن يكون قد وجد فى عقولهم بين عقائدهم الخاصة وعقائد الآخرين ، ويظهر أن دانتى رغب على الأقل فى رسم نهاية ما بلغه منها بوضعه Riphaeus فى الجنة والحيازه إلى طريق ضال فى توزيعه الثواب والعقاب وقصيدة ملتون تتضمن رداً فلسفياً لذلك النظام الذى نتج عنه برهان قوى ساطع فما من شىء يسمو على تصوير الشيطان فى البراعة والفخامة كما صور فى الفردوس الضائع . ومن الخطأ أن نتوهم أن الغرض من وجوده كان لتصوير الشر المعروف ، فشيطان ملتون كمخلوق أخلاقى يسمو إلى درجة خالقه .

وقد خالف ملتون العقيدة العامة ـ اذا اعتبر هذا تعدياً ـ بعدم إظهاره ربه فى صورة أسمى من شيطانه ، وهذا الاهمال الشنيع لذلك الجانب الأخلاقى الظاهر هو أكبر دليل قاطع على سمو عبقرية ملتون . فقد مزج عناصر الطبيعة البشرية كما لوكانت موضوعة على لوح المصور ورتبها فى نظام صورته العظيمة تبعاً لقوانين القصص الصادقة أى تبعاً لقوانين تلك النظرية التى تضم سلسلة أحداث العالم الخارجى من المخلوقات الذكية الاخلاقية لتثير عطف الأجيال التالية على الانسان .

فالدرامة الإلهية والفردوس الضائع قد ألقيتا على الأساطير الحديثة صورة منظمة ، وعند ما يحين الزمان أن يضيف أسطورة جديدة لتلك التى ظهرت واندثرت ويتخذ المفسرون تفسيراً علمياً فى شرح دين أوربا يجدون بعضه قد نسى وليس كله لأنه يكون قد طبع بطابع العبقرية الخالدة . وقد كان هومرس أول شاعر قصصى وكان دانتى الثانى فارتبطت سلسلة مبتكرات الشاعر الثانى ارتباطاً مفهوماً بمعرفة شعور ودين العصر الذى عاش فيه والاجيال التى تلته تابعة لها فى رقيها ؟

(يتبع) نظمى خليل

جون كيتس

(٢)

كان لا يزال بمدرسة مستر كلارك حينما توفيت أمه فى شهر فبراير من عام ١٨١٠ م . وهو لم يعد الرابعة عشر بعدُ . . وكان كثيراً ما يختفى تحت القمطر ، ويروح منطلقاً مع همومه باكياً . وعيّنتْ مسز جينجز (جدته لأمه) رولاند ساندل وربشارد آبى وصيين على كيتس واخوته ، ووهبت لهما جانباً كبيراً من ثروتها .

جون كيتس
تصوير هلمْتُن فى متحف الصور الأهلى بلندن

وفى نهاية عام ١٨١٠ ترك شاعرنا المدرسة فى تمام الخامسة عشرة من عمره ، وصار مساعداً للجراح توماس هاموند فى إدمنتون على بعد ميلين من إنفيلد . يقول كلارك : « لقد رضى واقتنع بهذا المآل . فهو يقدر أن يخصص وقت فراغه من العمل فى المستشفى للاطلاع والترجمة . وفعلاً أتم الاينيد وهو عند مستر هاموند .

وتنازع كيتس ومستر هاموند وأدّى النزاع إلى فرقتهما ، وفى عام ١٨١٤ توجه الشاعر الى لندن للدراسة فى مستشفيات توماس وجاى . . وسكن أول الأمر فى المنزل رقم ٨ بشارع دين فى مدينة بَرَهْ ، ثم أقام بعد ذلك فى غرف مع جورج ولسون ماكيرث ، وهنرى ستيفن ، اللذين كانا يطلبان الطب مثله وستيفن هذا له فضل عظيم ، إذ أدلى بمعلومات قيمة عن الشاعر للورد هوجتون وسواه . ولقد كان كيتس موضع إهتمام اخوانه مدة الطب ، وكان يدهشهم بشعره ، ويملأ كتبهم ودفاترهم بنظمه الرشيق . قال ستيفن: «لقد منعه تعلقه الشديد بالقريض من الاهتمام بغيره من الأمور ، كما عصمه من الخطيئة والإثم . »

وبالرغم من تعلقه بالشعر ، فالوثائق تقول لنا انه كان طالبَ طبٍّ موفقاً مثابراً قادراً ناجحاً ، ولقد كان فى مقدوره أن يشق سبيله إلى النبوغ كطبيب ، لو لم يكن يحفزه ذلك المؤثر القادر الغلاّب . كان يحسن القيام بالعمليات الجراحية ، ولكن خياله كان يجسم له المصير المريع لو أخفق فى تأدية إحدى العمليات على الوجه الأكمل وكذلك كانت حياته الحقيقية بعيدة عن الدنيا الواقعية ، سارية فى حقول الخيال النائية متجنبة حقائق العلوم المكفهرة ، أجل . . أخذ شاعرنا يدنو رويداً من إلهة الشعر الخالدة إلى أن سلمها نفسه جميعاً آخر المطاف . ولم يعد بعد ابن إلّه الطب Aesculapius . ولقد كان لتعرفه إلى ليت هَنْتَ وهايدون مبدأ إشعال قوة خياله الجبارة ، التى كانت تنتظر الحافز والمنشط . وعند ما استكمل الحادية والعشرين من عمره تغلبت عليه وملكت جميع مشاعره فكرة الحياة الشاعرية الفنّانة الطليقة ، وفعلاً كان فى استطاعته أن يكسب رزقه من شعره وقلمه .

والذين شجعوه باديء ذى بدء على المضى فى طريق الأدب واتخاذ الشعر حرفة له ، هم شارلس كلارك ، باعتباره المثقف الأول له ، وليت هَنْتَ ، ثم هايدون ، وهم لاشك ينتقد عليهم تغريرهم إياه وحرمانهم إياه دراسة الطب بحضهم المتواصل على سلوك مِدَقّ الأدب الشائك الملتوى .

ومن بين أصدقاء حداثته : جورج مائيو ، ويليام هازلام ، جوسف سيفرن ، شارلس ولز . أما مائيو فلم يكن معروفاً للناس ، بيد أن أسرته كانت تحترف التجارة وكان يظهر الكرم والحفاوة بالشاعر ، حتى أن كيتس وجّه إليه بعض قصائده الأولى ولما كتب مائيو إلى اللورد هوجتون عام ١٨٤٨ ذكريانه عن الشاعر ، قال :

« كان موظفاً احتياطياً يكافح ويجاهد فى سبيل الحصول على مرتب ضئيل جداً ؛ ليسد به عوز أسرة مكونة من اثنى عشر طفلاً . وبالرغم من أننى كنت مساوياً لكيتس فى العمر ، ومن أننا علقنا بالآداب معاً ؛ فقد كنا نختلف من بعض الوجوه كما يجب أن يختلف شخص عن آخر . كان يتمتع بصحة جيدة ، بحيوية متدفقة . وكان مولعاً بالمجتمعات لا يكاد يطيق العزلة ، يمتع نفسه بكل لذائذ الحياة . كثير الثقة بنفسه . أما أنا فكنت على نقيضه ، محطم الروح ، متجهم الصدر حزيناً أميل الى الراحة والخمول ، أكثر التأمل والتفكير على خلاف من كانوا فى سنى . وكان كيتس كذلك من أبناء المدرسة الجمهورية : كثير الدفاع عن الافكار الجديدة التى أخذت تزدهر فى عصره . كثير التنقيب والبحث عن العيوب والنقائص ، هداماً لكل قاعدة سائرة ، فى حين كنت أكره التجديد ، وأمقت الاضطراب والخروج على النظام . . وكان شديد الولوع بالمزاويق والزخارف ، عظيم النزوع إلى البهرج المطرز . وكان يبتهج إذ يقودك بين رياض وصفه البارعة ، ولكنه لم يكن ليفطن كثيراً الى السمو ، ولم يكن يعنى بتحريك العواطف . وكان معتاداً إنفاق أماسٍ طويلة فى القراءة معى ، بيد أنى كنت لا ألاحظ فى نبراته تهدجاً وانجياشاً ، ولا كنت أظفر من عينيه بدمعة تدلى على مبلغ حساسيته وتأثره بما كان يتلوه علىّ .

أما وليم هازلام ، فرجل ربما كان قد كتب لاسمه الاهمال والنسيان لسوء الطالع أو لحسه قل ما تشاء — لولا أن اسمه تردد مراراً فى رسائل الشاعر ، وفى الوثائق الأخرى ، ولكنه على كل حال يمتاز بأنه واسطة التعارف بين الشاعر وجوزيف سيفرن الذى كان لا يزال فى تلك الاثناء شاباً يجاهد فى سبيل الطموح والسمو بالفن . وسرعان ما رأى فى شاعرنا النموذج الذى رسمه فى خياله للشاعرية الفذة . وهكذا خلق كيتس حوله جواً من الانصار والأحباب والمعجبين يلهجون بنبوغه وعبقريته ، قبل أن يقدم العمل الفنىّ المتين الذى يبرهن مستغنياً على ذلك النبوغ وتلك العبقرية .

وشارلز ويلز كان زميلاً لتوم كيتس أثناء الطلب فى إدمونتون وكان يعيش فى تلك الاثناء مع أسرته فى هولبورن . وقد ذكره الشاعر فى أغنية بمناسبة إهدائه باقة زهر .

ومن أمتع الشخصيات المتعلقة بحياة شاعرنا ، شخصية جورجانيا اوجستا وبللى حبيبة جورج كيتس وكان الشاعر يشجع شقيقه على المضى فى غرامه ، ويساعده جدياً

وصوّر حُبّه فى قصائد رائعة زفّها اليها ، منها المقطوعة الرائعة « فالنتين » التى يقول فيها : —

«لو كنت عشت فى العصور الغابرة ، فما هى تلك الصور العجيبة التى كانت تقص علينا جمالك الحىّ ، وتصور عينيك الرئبقيتين اللتين تترافصان وسط جوّ من البريق المذهل فى بهر الضياء ، وضجة الأضواء؟!

.. أجل .. عيناك .. اللتان تحميهما الأهداب متعطفة .. راسمة كل معنى سحرىّ محبوب .. »

ولقد ذكرت مسز أوين فى كتابها « دراسة عن جون كيتس » أن تأثير هذه الفتاة جورجانيا فى الشاعر كان عظيماً ، وذلك راجع لاتصاله بالفتاة الفتانة ، ثم أدلت بنقطة هامة هى : « لاشك أن هذه الفتاة الصغيرة ، زوجة شقيقه ، كانت منبعاً صافياً بريئاً من المنابع العلوية التى استمد منها الشاعر صورة أنديميون ، وعبثاً نحاول تجاهل ظلال النموذج الرفيع المتراءى بين سطور هذه الصفحات ، فان براءة العلاقات التى نشأت بين أنديميون وبيونا ، لابدّ جاءت نتيجة لهذا التأثير المغبوط .. »

لست أدرى كيف كان شاعرنا يجذب الناس اليه ، ويعطف قلوبهم نحوه لأول وهلة ، ولكن لنسمع (ليت هنت) يصرح لنا بذكرياته عن أول لقاء قام بينهما : « اننى مدين لمستر كلارك الذى عرفنى الى الشاعر ، ولن أقوى ما حييت على إزالة الطابع الذى ارتسم بذهنى عند ذلك اللقاء ، فلقد لمحت بريق العبقرية الأصيلة الحية فى فى الوجه الماثل أمامى ، كما توسمت مخايل النبوغ وتباشير الشهرة . ثم أصبحنا صديقين فألفيت قلب الشاعر متحمساً فياضاً كخياله . فكنا نقرأ سوياً ونخرج للنزهة سوياً كما كنا نتفق الامامى فى نظم الاشعار فى موضوع معين .. لم نكن نغفل لذة خيالية ولا نهمل منبعاً للوحى والقريض دون أن نتلهى به . فمن ذكريات الصور الدراسية والنماذج العتيقة ، الى وصف جمال الافطار فى فصل الصيف ، الى ملاحظة اشتعال الجمر فى مواقد الشتاء ، ثم حدث أن قرأت أشعار صديقى بعد زمن قليل على جودوين ، هازليت ، باسيل ، مونتاج فصرح الجميع بأنها قصائد مدهشة رائعة ، وما كنت أنا نفسى أحسبها كذلك .

وكانت احدى هذه القصائد أغنية عن أول قراءة لهومير ، وهى قصيدة وضّحت قوته وهدوءه وأعلنت تماماً أن شاعراً جديداً يأخذ مكانه تحت الشمس .

جون كيتس — من رسم جوزف سيفرن

لم يذهب تأثير كيتس على هنْت وسواه من الصحاب ، ولقد كان هنت يميل الى التحدث كالآخرين عن مظهره وهيأته . وهكذا راح يقول : —

«كانت قامته أكثر من المتوسط ، بيد أنه كان أنيقاً وجيهاً . وكان عريض المنكبين بحيث لم يكونا متناسبين مع حجمه . وكان له وجه تمتزج فيه القوة بالحساسية امتزاجاً بعيداً ، قوة متوفزة كسرت من شرّتها الامراض والعللُ . كان متناسق الملامح رشيقها ، طويل الوجه ، شفته العليا نائئة قليلا عن السفلى . وصلابته وشجاعته متمثلتين فى ذقنه ، غائر الخدين ، متسألق العينين . وكان اذا استثاره مؤثر نبيل ، جاشت الدموع بعينيه المعبرتين ، وارتجفت شفتاه وأربدتا »

. لم تكن الأعمال الشعرية الأولى التى قدمها الشاعر شعراً بالمعنى الصحيح ، وانما كانت محاولات مشكورة . وفى عصر الانتقال يلاحظ الانسان الشاعر الذى يطمح الى شق طريقه الفنى يكثر من المحاولات . . . ومع ذلك فقد كان هنالك قبس من الايحاء الفذّ يواتيه بين الفينة الفينة فى هذا العهد الأول ، كما فى مقطوعته « أول

قراءة لهوميروس التي سبق أن عرضنا لها . وعند ما امتزج برجال العلم أمثال جون هاملتون ، رينولدز ، ويب ، هوارس سميث ، شيللي ، ووردزورث ابتدأت شخصيته كشاعر تقوى وتنضج ، حتى انه في تلك الاثناء اعتزم طبع المجموعة الأولى من شعره بعد أن أتم قطعة ممتازة من الشعر النقدي أسماها «النوم والشعر» كتبها عقب نومه في كوخ هَنْت في هيث. وفي مارس ١٨١٧ ظهر للناس الجزء الاول من ديوان الشاعر ، أصدره شارلس وجيمس اولير ، وكانا حديثي العهد بنشر الكتب ، وصارا فيما بعد ناشري شيللي. ولم يقو الكتاب الصغير على جذب الأنظار اليه ، ولو أن هنت أحسن التعليق عليه في Examiner وما كان هذا الفشل المبدئي ليحطم آمال الشاعر الشاب ، بل ويقال انه تبارى مع شيللي في ميدان القريض ، أن يكتب شيللي Laon & Cythna ويكتب كيتس (أنديميون) ، على أمل معرفة من منهما ينجز عمله قبل الآخر .

وفي ١٤ ابريل عام ١٨١٧ ، رجاه أخوانه واشترك هيدون معهم في الرجاء ، أن يبارح لندن لينفرد بنفسه عساه يُصلِح شعره — حتى أنه لم يقبل دعوة شيللي التي وجهها اليه قاصداً أن يتكرم عليه بتمضية أيام معه في (مارلو) ، كيما يكون بمعزل عن كل ما عساه أن يشغله ويلهيه عن عمله الفنّي . واتفق في أواخر ابريل أولير مع جورج كيتس شقيق الشاعر على التنحي عن استمرار نشر هذه المجموعة الشعرية الصغيرة وابتدأ كيتس ينظم (انديميون) في كاريسروك بجزيرة (وايت) وفي (مارجريت) ثم في كانتبوري ، وكان أخوه توم بجانبه أثناء إقامته في (مارجريت) و (كانتبوري) ، ولكنه بعد أن بلغتة من شقيقه جورج خطابات كثيرة تتعلق بمسائل مالية ، رجع ومعه أخوه إلى لندن ، واتخذ له سكناً في هامبستيد . وكان جورج في تلك المدة خالياً من العمل ، كما أن توم كان عاجزاً عن مزاولة أية حرفة ، فكان المال يعوزهم جميعاً ، فأسرع كيتس في الاتفاق مع الناشرين على (انديميون) ، وتناول منهم شيئاً من المال قبل طبعها .

وراح يعمل في (انديميون) صيف ذلك العام ، وقامت الصداقة فيما بينه وبين شارلس ديلك وشارل براون ، وكانا يسكنان منزلاً منعزلاً في الحيّ الذي كان يسكنه . وكان رينولدز هو واسطة التعارف الطيب — كان ديلك حينئذ في التاسعة والعشرين من عمره ، يعمل كاتباً في مصلحة البحرية ، بيد أنه كان شديد التعلق بالأدب — أما براون ، فكان في الحادية والثلاثين ، رفيقاً طيباً ، له آثار أدبية ،

وقد أصاب ٥٠٠ جنيه بكتابته (أوبرا) ناجحة فى موضوع روسى . وكان كل من الرجلين مختلفاً عن كيتس كلية ، بل ويختلف أحدهما عن رفيقه كذلك . وصديق ثالث قدمه اليه رينولدز كذلك ، هو بنيامين بيلى ، الذى كان يقرأ فى كنيسة (اكسفورد) ، وثمة صديق رابع ، يجب أن نذكر اسمه هنا وهو جيمس رايس . وفى أثناء ذلك الصيف توجّه توم وجورج كيتس الى باريس متنزهين فى حين ذهب الشاعر الى اكسفورد ليقيم الى جوار (بيلى) مدة العطلة الطويلة وواظب فى اكسفورد على نظم (انديميون) ، وفرغ من الجزء الثالث ، وكتب رسائل مرحة سعيدة الى شقيقته فانى التى كانت بعيدة عنه صحبة مستر آبى الوصى عليهم ، والى جين ، وماريان رينولدز ، شقيقتى صديقه ، واللتين أصبحتا فيما بعد مسز توماس هود ومسز جرين . وعاد كيتس الى هامبستيد فى اكتوبر سنة ١٨١٧ . وكان هيدون وهنت متنابذين متخاصمين ، كما تشاجر هيدون مع رينولدز ، وراح هيدون يحذر كيتس من صحبة هنت ، وأوصاه أن يخفى عنه شعره ، لانه إن فعل فقد يشطب له هنت نصف ما ينظم ! ولكن كيتس لم يزل متعلقاً بهنت رغم استهجانه بعض تصرفاته الشاذة ، بل وعرف كيف يدحض حجج هيدون المُغْرِضَة . وتوجّه الشاعر فى الخريف الى (بورفورد بريدج) حيث أنهى (انديميون) وبعد عودته الى هامبستيد فى فصل الشتاء راجع القصيد مرة أخرى ، ونقده وهذبه فنياً ، ونظم بعض أشعار أخرى صغيرة وحدث فى تلك المدة أن مرض توم مرضاً فظيعاً (بذات الرئة) ، فذهب به جورج فى الشتاء الى (تينموث) كما نصح الأطباء .

وقامت مشكلة أخرى : هى أن جورج اعتزم الزواج من جورجيانا وعقد نيته على الهجرة الى امريكا ، وكان توم قد تحسنت صحته بعض الشىء من جراء جفاف جو الجنوب ، وسافر كيتس الى الجنوب من أجل هذا الغرض كذلك ، وكانت (انديميون) قد تمّ طبعها ، ومقدمتها على وشك الانتهاء ، وكذلك كان قد أنهى (إيزابيلا) وبعض مقطوعات صغيرة أخرى من أحسنها ما كتبه الى رينولدز .

وأخذت حالة الأسرة تظلم منذ ذلك التاريخ ، بل أخذ جون كيتس يهمل العناية بصحته . كان يخامره داء دفين رغم مظهره القوى . والحق أنه كاد لا يعبأ بصحته وقوته ، وكاد جورج يعرف ذلك تمام المعرفة ، وهو لم يفكر فى الهجرة من أجل مصلحته الخاصة فقط ، بل كان يسعى اليها كيما يكون بعيداً عن أخيه الذى كان

يعتمد عليه فى انجاز حاجياته كلما احتاج الى المال ، وكثيراً ما كان يحتاج اليه . . . وقبلت مس ويللى الاقتران من جورج الشجاع ، حينما عاد كيتس بشقيقه المريض توم الى لندن مايو ١٨١٨ م .

وفى الوقت الذى اعتزم فيه جورج كيتس الهجرة بزوجته الى امريكا ، حدث حادث مؤثر فى حياة أسرة كيتس : ذلك أن براون وكيتس اعتزما القيام برحلة مشياً على الأقدام فى اسكتلندة تاركين توم المسكين فى (ويل والك) وسافر جورج وعقيلته الى ليفربول ، وودّعهما اليها جون وبراون ، وأبحر جورج وزوجته ،وعاد الآخران الى لانكستر وقد سجل كيتس حوادث هذه الرحلة الممتعة فى خطاباته الحية الجميلة . وتقدما من (لانكستر) الى (ويندر ميرليك) وكانت رحلة جميلة حقاً لو لا أن كيتس أصابه برد شديد ثقل على صدره واضطره الى وقف رحلته . يقول براون : « سيتركنى مستر كيتس هنا وحيداً وأنا لذلك جد حزين.هو عاجز عن السير معى إذ أصابه برد شديد فى صدره يضطره الى السفر العاجل الى لندن . لقدتبدلت صحته وآضت حيويته هشيماً ، ويخبرنا الطبيب هنا أنه لن يشفى من مرضه الخبيث لو استمر فى رحلته على قدميه معرضاً ذاته لهذه الأجواء العاتية » . ويقول فى خطاب آخر « لقد أصابه برد شديد فى جزيرة (مَلّ) تركه فى حال يرثى لها . ويعتقد الطبيب هنا أنه أضعف من أن يتابع الرحلة . ان هذا فشل قاس لنا . فلقد كنا سعيدين باجتماعنا معاً . وأسفاه ! سأجوب أنحاء اسكتلندة وحيداً ! ولكن آلامى لا تقاس بآلامه ، فانى وان كنت أفقد صحبته وهى خسارة جسيمة الا أنه سيحرم رؤية هذا الاقليم » .

ولقد كانت حالة شقيقه توم مما يدعوه الى الاسراع فى العودة الى لندن ، وحينما وصل نهر التيمس فى ١٨ أغسطس وبلغ هامبستيد ، كان فى حاجة قصوى الى من يرعاه ويقوم على حراسته هو الآخر . ووصفته مسز ويلك عند ما أبصرته فى أوبته قائلة « كان شاحباً شحوباً مخيفاً ، ممزق الثياب والحذاء . . الخ »

وراح شاعرنا ينشد العمل الأدبى البحت فى معاهده القديمة ، ولكنه هوجم من Blackwood's Magazine التى سبته فى مقالة سافلة ، وكذلك كتبت Quarterly Review نقدات ساقطة ،ولسنا بحاجة الى القول انه لم يعن بهذه المهاجمات ولم يقم لها وزناً ولا اعتباراً ، بل كان يحتقر سفالة Wilson وقاذورات من يكتب بدون إمضاء صريح فى مجلة Quarterly Review وعلاوة على ذلك فقد كان مبلبل

الذهن من جراء سوء صحة أخيه توم ، بيد أنه كان رجلا بما فى الكلمة من معنى ، ويقول عنه شقيقه جورج : « ليس جون سوى روح الشجاعة والرجولة الحقة ! » .

ويقول أحد أصدقاء كيتس الذين تعرف اليهم أخيراً بعد المهاجمات الكثيرة التى جابهها من الصحف : وهو يدعى بريان وولر بروكتر ، فى الترجمة التى كتبها عام ١٨٧٧ :

« عندى القليل أسرده عن كيتس : رأيته مرتين أو ثلاث قبيل سفره الى ايطاليا . قدمنى اليه هنت ، فوجدته كثير اللطف جمّ الوداد ، خالياً من الصلف أو التصنع فى آرائه وطباعه . من النادر أن ترى رجلاً فى مثل شمائله وجماله . كان على استعداد دائم للاصغاء لكل حديث ، وللاجابة عن كل سؤال ، كان على أهبة تامة للنقاش والمحاجة ، والجهر بالرأى ، والانغماس فى الاحاديث العنيفة المحرجة والمسائل العامة . وقد قيل أن شعره تنقصه النحولة والرجولة ، وأشهد انى لم أر شاباً أكثر ، منه رجولة وصلابة . . »

ولقد ذكرت أرملة بروكتر فى تصريح واضح لها انها تأثرت كثيراً بعيون الشاعر التى كانت تحسبها تشخص فى جلال الى منظر سام . . »

وفى أول ديسمبر حانت منية توم المسكين - فى الليل - وترك كيتس غرفة الموت وطير النبأ الى براون ، وقد سجل براون هذه الزيارة فى قوله : « استيقظت بكرة يوم من الايام على أثر ضغط على يدى . لقد كان كيتس جاء يخبرنى بان أخاه قد انتهى . لم أحر جواباً ومكثنا برهة صامتين ، وعينى تنظر فى عينه . وسرعان ما انتقلت خواطرى من الميت الى الحىّ ، قلت : ألا تبق بعد الآن فى هذه الحجرات منفرداً هكذا . . ! ألا تقبل أن تعيش وإياى ؟ فتنهد وضغط يدى بحرارة ، ثم أجاب : (أظن من الافضل أن أفعل ذلك . . . ومنذ ذلك اللحظة لم نفترق » .

وابتدأ كيتس فى هيبيريون بجانب فراش الشقيق العليل ، وشرع ينظمها فى مبدأ علاقته ببراون ، ولكن أعصابه لم تهدأ منذ وفاة أخيه الذى كان يكاد يعبده . وخير من يصف لنا حزنه الفاجع فى تلك الاثناء هو صديقه ديلك فقد جرى أرنب ذات يوم فى حديقة وينتورث فاصطاده ديلك ، فظن كيتس أن هذا الأرنب ليس سوى روح توم ! وهكذا كان يتقول ويتخيل فى كل مواقفه الهاجسة !

ولما أسى الدهر جراحه ، وأنسته الأيام آلام فقد الشقيق ، عاد الى فنه يهبه روحه

وكيانه ، ولكن مأساة بالغة كانت تنتظره لتفسد عليه الحياة : تلك انه قابل عند جاره مستر ديلك مسز براون وكريمتها فانى التى لم يكن الشاعر يحبها أول الأمر ولكنه سرعان ما أصبح مولعاً بها مشغوفا بحسنها . حاول أن يقنع نفسه بأنه لا يحبها ، ولكنه على النقيض ما كان إلا ليزيد النار اشتعالاً .. لقد ملكت عليه كل نهاه ، وقيدت قوته الطليقة الطافرة . ولم يقصر عمله الفنىّ على هيبيرون فحسب ، بل أخذ يكتب أول الشتاء حواء سنت أجن وعند انصرام يناير سنة ١٨١٩ وهو يزور مع براون ، والد ديلك فى شيشيستر ، ومستر ومسز سنوك فى بيد هامبتون ومسز سنوك هى شقيقة ديلك — ابتدأ شاعرنا نظم قطعة النادرة (حواء سنت مارك) .

وعاد مرة أخرى الى وينورث فى فبراير ، وعندئذ ذاع حبه لفانى وأعلنت خطبتهما ، تقول الفتاة : « لقد كان لمرضه المباغت وعودته الفاجعة من رحلة فى اسكتلندة ثم لموت شقيقه توم أكبر الأثر فى نفسى ، مما دفعنى إلى الاتصال به والاشفاق عليه . كنا نتقابل على الدوام فى منزل صديقه ، ولكننى لم ألحظ عليه فى ذلك الوقت ولا بعده أى معنى من معانى البثّ والشكاية . لقد كانت رجولته كاملة عجيبة ، وكان تحمّله وتصبره غريباً ؛ كما كان سامى الخلق ، اللهم الا حينما يرى المرض يطغى على شقيقه توم ، فقد كان ينقلب عند ذلك نمراً متوحشاً » .

مختار الوكيل

زعماء الرومانتيسم

لامرتين

(١)

قال أحد جهابذة النّقد فى عرْض كلامه عن لامرتين :

« إنّ لامرتين لا كثرُ من شاعر — إنّه الشعرُ نفسُه »

ولعمر الحقّ إنّ لامرتين لهو الشعر بكل ما فى كلمة الشعر من معانٍ ، بل هو كل ما فى الشعر من حسنٍ جميلٍ — وإذا كان أحسنُ ما فى الشعر الحلم بعوالم الجمال

والكمال والمثل الروحية العالية ، والارتفاع بالعواطف والأشواق إلى أخلص وأطهر ما تكون عليه فى القلب البشرى ، فان لامرتين كان هذا ، وكان شاعراً عظيماً فى كل هذا — فقد جال وحىُ عبقريته فى كل الميادين ، ورددت قيثارته كل النغم التى كثيراً ما كانت ذات نبرات حزينة كئيبة . ولكن رفيعة سامية — وكانت روحه التى لا تنضب تكسو كل حادث عادى أو واقعة عارضة ثوباً من الجلال ، وتسبغ عليه فضل أمثلته الرفيعة وروحانيته المشعّة فى كل آثاره .

لامرتين

ذلك ان لامرتين كان روحياً بأتمّ معنى الكلمة، حتى قيل إنّه لم يكن رجلٌ مثله لا يرى من الحياة الا جانبها الجميل ، وانه يرتفع بطبعه الى التأمل الروحى حتى ليرى ديمومة الجمال فى الحياة ، وانتصاره فى آخر الأمر على ما عداه . . وإنه لم يأت فى فرنسة ممن يشاركه فى هذه الخلة منذ أفلاطون — فهو يعيش فى حلم دائم بالجمال ويعجب به فى نفسه وفى شخصه ، وفى فكره وقلبه ، ويعجب به فى الطبيعة التى يراها دوماً جميلةً ساحرةً ، وفى الانسانية التى لا يرى إلا رءوسها المكللة باكاليل الغار — وهو إذا تحدث عن بلاده وعن الانسانية وعن الالـه يجعل ذلك الحديث كلّفاً ثم يجعل ما يكلف به ديناً له ما للدين من هيبة وجلالة — وأنظر إلى قصائده الموسومة بالنغمات Les harmonies أنها ليست استدلالات فيلسوف عن وجود واجب الوجود ، ولا هى تأملات متصوّف ، وإنما هى ارتفاعات وتنقلات من محاسن الطبيعة البادية إلى المحاسن المطلقة التى هى الله ، وهى أشواق غريزية لروح تراها تصعد من أسفل درجةٍ فى سلم الجمال إلى أعلاها . وإنه ليخيل اليك

وأنت تقرأ شعره أن الشر والقبح لا يوجدان فى الكون . ولم يتناول لامرتين مسألة الشر إلا فى قصيدة « اليأس » ولكنه يظهر من هاته القصيدة ومن كتابة سقطة ملاك أنه غير بارع فى تصويرهما لأنه غير قادر على تصوّرهما .

على انه وإن كان يعيش فى حلم لاينسى مع ذلك الواقع فهو كما قال : « ظامىء الى العمل ومولودٌ الى العمل » . ألا ترى أن هذا الشاعر الحالم استطاع أن يكون سياسياً ماهراً وخطيباً شعبياً . ثم لما تحطمه الحوادث السياسية يرجع الى سكون وعزلته راضياً قانعاً بالعمل الشاق الذى فرضته عليه الأيام فى شيخوخته[1] .

ولم يكن لامرتين يتخذ الأدب صناعيه فقد قال « إن الشعر ليس بصناعتى ولكن حادث عارض ومناسبة سعيدة وحظ جميل أتيح لى فى حياتى » ويعترف أن لاصبر له على التنقيح والتهذيب لشعر ، بل كانت تنبعث فيه الرغبة للقول فاذا قلبه يملى وقلمه يطيع .

وشعر لامرتين موسيقى ذائبة لطيفة عذبة ، وربما ارتفع من النشيد العذب الملائكى إلى الشعر الفخم القوى الصاخب إذا دعته قوة الاندفاعات الدافقة من روحه الجياشة ، فيضيف حينئذ الى قيثارته الرقيقة وتراً نحاسياً .

والعادة التى يستمد منها لامرتين لحمة قصائده هى الحب الذى يجعل منه موضوعاً للتأمّل والذهول الصوفى ، والألم الذى تجد فيه كآبته الطبعية مجالا ومراحاً ، والطبيعة التى تسليه ، والايمان الذى يكون منه مخلوقاً ممتلئاً لارادة الله متغنياً بمجده وحمده وشعره فى جملته عاطفة لكنها معقدة بعض التعقيد فهى متطهرة ملتهبة إذا تكلمت عن عظمة الحب وشقاوته ، وهى متعطشة الى اليقين ظامئة الى الطمأنينة مليئة بالحيرة إذا تحدثت عن الطبيعة والموت والاله . وكل شعره مكتوب بلهجة مؤثرة وأسلوب موسيقى يلاطف الرُّوح ويهدهدها ويبعث فيها أصدية لانهاية لها .

---

(١) انتخب نائباً سنة ١٨٣٣م . ثم ترشح لرئاسة الجمهورية فظهر عليه لويس نابليون وانقلب نظام الحكومة الى امبراطورية سنة ١٨٥١ فاعتزل السياسة . وافتقر فى شيخوخته لأنه كان جواداً متلافاً وفدحته أعباء الدين فعمل خمسة عشر عاماً عمل المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ليتخلص من دينه ومدت له الحكومة يد المعونة فلم يتمتع بذلك إلا عامين وتوفى سنة ١٨٦٩ وانظر تفصيل سيرته فى رفائيل ترجمة الزيات .

شعره الغزلي

ذلك ما يُقال على الإجمال فى لامرتين الشاعر . ولكنَّ الباحثَ فى أدبه لا بدَّ له من وَقْفَةٍ خاصةٍ فى شعره الغزلى والفلسفى إذْ كان هذان الغرضان مما غلب عليه وجالت فيه عبقريته جولاتٍ دائمة .

كان لامرتين شاعراً غَزِلاً من أبدع شعراء الغزل فى اللغة الفرنسية .

وكان غزله نوعاً جديداً لم يرَ الناس مثله فى ذلك العصر ، فقد عيل صبرُهم من غزل القرن الثامن عشر الميت ونسيبهم المتهتك ، وخابَ ظنُّهم فى شعراءَ ظهروا قُبيل لامرتين : ذلك لأنهم لم يستطيعوا أن يتخطَّوا عصرهم ويتخلَّصوا كلَّ التَّخلص من تلك الجفاءة القديمة والركة الموروثة .

فلما ظهر لامرتين جاء فى الغزل بشىءٍ يُشبه الخيال الافلاطونى ، والاحلام الساهمة والجمال المنقَّب ، ومَزَج ذلك بشىءٍ من الحسن الكسول ، واللطف الناعم .

وقد تيسَّرَ لهُ من أداة الغزل هذه الرغبة البريئةُ التى تدفع صاحبَها الى التحدُّث عن هزَّات قلبه وانفعالاته ، ثم الرغبة فى صَوغ هاته الانفعالات فى كلامٍ صادق لا مؤاربة فيه ولا كذب أو تلاعب ، ثم مزيةُ الإدراك البديهى الذي يَقدر به صاحبه على التمييز بين مختلف الهزَّات والانفعالات واختيارِ أنبلها وأشعلِها وأجْدرِها بالخلود ، ثم أخيراً هذا الذوق الفنى الذى يلين من جفاء تلك الانفعالات ويلطف من جموحها ، ويخرج منها ما يشوه محاسنها عند التعبير والاداء

ومن اجتماع هاته المزايا فى لامرتين ومزايا أخري صدرت قصائده الغزلية الباقية على الدهر ما بقى فى الناس قلوبٌ خافقة .

هذه القصائد كانت كلها تعبيراً عاطفياً مصفًّى ما أمكن من الحوادث والوقائع والأسباب التى كوَّنته أو أوحتْ به لقريحة الشاعر . وهذا التطهير أو التصفية كانت طبيعة فى لامرتين فهو كما قيل الشعر نفسه . ومتى كان الشعر مطالباً بدقة التَّاريخ وتحليل الفلسفة ؟ بل إنّ وظيفة الشعر هى بعث الاصداء فى النفس ، وإهاجة العواطف ، وإثارة الشعور ، وترك الأثر واضحاً مردَّداً فى روح القارىء . وهذا ما كان يتركه شعر لامرتين فى أنفُس قرائه .

أنظر الى قصيدة «الوحدة» فليس هناك أثر للظروف أو الأسباب التي كانت سبب كآبة الشاعر ووحشة نفسه ، فالشاعر يذكر فيها غاباتٍ وأنهاراً ، وجبالاً وأحجاراً ، وكنيسةً وصلاةً ، وغدواً وآصالاً ، ولكنه لا يقول لنا أين موضع هذا : أفي الكون كله ؟ لا جواب . وإنما يقول :

« أيها الأنهار والأحجار والغابات والخلوات العزيزةُ عليّ »

« إن غيبة مخلوق واحدٍ من ربوعكنّ جعل عامركنّ خراباً »

« وددتُ أنكنّ وحشة »

فمن هو هذا المخلوق ؟ وبأيّ خيطٍ يتّصل بروح الشاعر ؟ وعبثاً نتساءل فالشاعر لا يرينا مما في نفسه ولا مما في خارج نفسه سوى يأسه العميق وشوقه المبهم إلى مكان مجهول الإسم :

« سواءٌ عليّ أتطلعُ الشمسُ أم تغرب »

« وتصحو السماء أم تغيم ، ويظلم الليل »

« أم ينير الصبح ، فليس لي بغيةٌ في اليوم »

« ولا رجيةٌ في الغد »

* * *

« وحيثما ارسل عينيّ تتبعان الشمسَ »

« في مدارها الرّحب القصي لا أنظر في كل مكان »

« غير الفراغ والخلوّ ! لا حاجةَ لي إلى من تظله »

« السماء ، ولا رغبةَ لي فيما تُنيره الأرض (١) »

هذا كل ما نعرف من سبب كآبته ولكن هذا الابهام كافٍ إذا كانت الكآبة الممضّة والشعور بالفراغ الهائل والوحدة الأليمة يراد تصويرها كما هي في النفس غامضةً مبهمة . وانظر بعد ذلك إلى قصيدته «الوادي» فليس فيها ما يدل على المؤثر الأدبي الذي أدّى الشاعر الى تلك الحالة الفكرية المصورة في هذه القصيدة والتي يقول فيها :

---

(١) ترجمة أحمد الزيات .

« لقد رأيتُ كثيراً ، وأحسستُ كثيراً ، وأحببتُ فى حياتى كثيراً »

فالتعبيرُ عن النّصب الذى أحسّت به روحٌ كثيراً ما تحركت واضطربت وتصادمت فيها العواطف المختلفة ، والتعبير عن الشعور بالراحة الكبرى التى تجدها عقب ذلك النّصب ، ثم التعبير عن هذا الصمت الداخلى الذى يشعر به الكيان كله حين ينكمش على نفسه ويريد أن ينسى ذلك النصب واللغوب . . هذا هو الصعب ، وهذا هو الذى تقف دونه الكلمات حائرةً عاجزةً لأنها لا تفلح فى أدائه على التّحقيق ولا تصل إلى الغوص على كنهه . ولكن انظر إلى الشاعر كيف يؤدّيه ويعبر عنه بطريقته المبهمة التى تترك فى النفس أثراً مبهماً يوازى إبهام المعنى الذى تشعر به وتعجز عن حدّه أو مسكه من يده .

قال لامرتين :

« إنّ قلبى لفى راحة ، وانّ نفسى لفى صمْت »

« وأنّ ضجة العالم القصية لتضعف حين تصل إلىّ »

« فهى كصوتِ ناءٍ أخفته طولُ المسافة »

« ثم حملته الرياحُ إلى آذانٍ موقورة »

* * *

« من هنا أرى الحياة خلال سحابة تتضاءل أمامى »

« وتتلاشى فى ظلال الماضى والحب وحده »

« بقى لى كما تبقى الصورة البارزة »

« من حلم الليل عند يقظة الصباح »

* * *

« استريحى يا نفسُ فى هذا الملجأ الباقى »

« كما يستريحُ ابن السبيل الملىء القلب بالأمل »

« حين يجلس عند أبواب المدينة (قبل أن يدخلها) ، »

« مستنشقا هنيهةً نسمات الماء الشذية »

* * *

« لننفض مثلهُ التراب عن أرجُلنا »

« فلا رجعة للانسان من ذاك الطريق »

« لنستمتع مثله فى نهاية وَحْدنا »

« بهذا السُّكون المبشر بالسلام الابدى »

هكذا عبَّر لامرتين عن كل هذه المعانى الغامضة، وهكذا يوفّق كل مرة توفيقاً عجيباً ، وهكذا تجد أغلب قصائده غارقة فى ضباب رقيق ، ملفوفةً فى نقاب شفاف مبعثة عن أثر تركته فى النفس إحدى المشاهدات

فاذا حدثك عن ذلك ترك فى نفسك أثراً مبهماً كالذى أحس به : أثر ليلة صيف سعيدة مرت سريعة تحت النجوم وكان يريدها طويلة ويأبى الزمان إلا أن تفرّ وتذهب الى الابد ،وها هى قصيدة «البحيرة» أثر شمس صفراء كالورس فى شهر أكتوبر ابتسامة وداع الصيف ، كآبة الغروب ، كون يتأهب للرقاد ، روح فاترة ضعيفة ، وها هى ذى قصيدة « الخريف » إحساس بالزوال الخفى الصامت الملازم للاشياء المنقضية بانقضاء الأيام . وتوالى الاعوام ، شواطئ يخيم عليها الغسق وأمجاد ضائعة فى هاوية الماضى ، وها هى ذى قصيدة خليج بايا (Golfe de Baia) :

« . . . هكذا كلُّ شيءٍ يتحوَّل ، وكل شيءٍ يزُول »

« وهكذا نحنُ انفسُنا نمضى »

« ولكنْ — واحسرتاه — دون أن نترك من الأثر »

« إلا ما يتركه على صفحة الماء هذا الزَّورقُ »

« الماخرُ بِنَا فى خضمٍّ يمَّحى فيه كلُّ شيء . . . »

هذه هى ميزة غزل لامرتين . وذلك ما يجب أن يكونَ عليه الغَزَل — فهو مُبهَم كالعواطف التى يبعثُها فى النَّفس وهو لطيف رقيق لكى يؤثر دون أن يؤلم ، ويُبلل العيون دون أن يسيل ماء الشؤون .

شعره الفلسفي

كل هاته العواطف الدافقة ، والزفرات المتصاعدة ، والأشواقُ الروحية ، قد أودَعَه لامرتين فى ديوانيه : التأمُّلات الأولى . والتأملات الجديدة .

ولكن هل من الممكن أن يستمرَّ الشاعر فى ذلك السبيل ؟ فمهما يكن من خُلُوّ شعر لامرتين من الأشكال المرئية والصور النائئة والمادة المتنوعة فانه لا بدَّ له من وحى جديد يستمد منه إلهاماته وإلا لكان مضطراً الى الإعادة والتكرير — نعم لقد أدّاه الحبُّ إلى تناول المشاكل التى تتعلق بالانسان وماهيته فتكلم على الموت والخلود ، والأمل والإيمان ، والروح والدين ، ومجدِ الله وعنايته الأزلية ، ولكنه أحسَّ بأنه قال كلُّ ما يُقال فى هاته الأغراض وفرغ ما عنده فى الحب ولواحقه . ولذلك أخذ يتساءل أين يتجه بتلك العبقرية الفيَّاضة والرُّوح الجيَّاشة التى لا تنضب ولا تكلّ . أليس هو القائل فى قصيدة الشاعر المحتضر :

« أنا أغنّى يا صحابى كما يتنفَّس الانسان »

« ويُغرّد الطائر ويَعزفُ الهواء ويخرّ الماء »

وفى الحين الذى كان يبحثُ فيه لامرتين عن مكان للقرار ظهرت[1] فى فرنسا مُوجةٌ قوية من تلك الموجات التى تظهر إثْر الثورات . وقد وَجَّهَ نيَّارُ هذه الموجة جميعَ مفكّري العصر الى العَطف على الإنسانية والتألّم لأجل المجتمع فاتجه لامرتين مع هذا التيار الى الشعر الفلسفى فى الوقت الذى شعر فيه من جهته بضرورة إكساء أدبه شيئاً من العواطف الخارجية objectives والخروج قليلاً من دائرة الشعر الغنائى الذاتى إلى الملحمة الرمزية تتجرد فيها العواطفُ والانفعالات من التعبير الداخلى الذاتى Subjective .

فابتدأ السيرَ الى هاته الغاية بتلخيص كتاب أفلاطون عن موت سُقراط وإتمام سفرة هارولد التى مات عنها بيرون . ولم يكن له فيهما من الآراء الشخصية إلا الشيء القليل . ولم يدخل حقيقةً الى الشعر الفلسفى الا بملحمة كبرى فى حظوظ الانسانية تصوُّرها وعمل برنامجها ولم ينظم إلا بدايتَها ونهايتها وهما : جوسّلين وسقطة ملاك[2] .

(١) حوالى ١٨٣٠ (٢) تُرجمتا الى العربية بقلم الأديب إلياس أبى شبكة .

* * *

وحوادث هاته القصيدة تتلخص فى أنّ ملاكاً سماوياً (صيدار) أحبّ فتاة من الأناسىّ هى دَيْدَمى وقد كلف بها كلفاً شديداً اضطره لأن ينقلب بشرياً ويسرى عليه قانون الفناء السارى على البشرية — ورضىَ اللهُ بهذا التغيير ولكنْ قدّر على الملاك الساقط أن يموت ويحيا ، وتظلّ روحه تتناسخ مارة بالعصور والأجيال من مبدأ الخليقة الى آخرها ولا يزال يتطهرُ بالآلام المرضىّ بها ويرتفع بمجهوده الذاتى ويعرج بروحه الانسانية الى الروح الكلى الذى هو غاية كل المخلوقات ، والنهاية التى تسير حثيثاً نحوها . وقد شرح هاته الفكرة الرئيسية فى الرؤيا الثامنة وفيها يقول :

« ابحث عن الله ! إنّ فكرة الإله هى علة الكائن »

« ووظيفة الكون هى التعريفُ به »

« إنّ كلّ الكائنات لتجدُّ السيرَ الى مَن صدرت عنهُ . »

« وما الحركة التى تحرك العوالم الا ذلك الاندفاعُ »

« الذى يدفعها الى الأبدى ويجعلها تتسابقُ »

« الى الفناء فى ذاته »

وإذا كان الانسان يحيره وجود الشر فى صنْعة الله فليعْملُ إلى التأمل فى الإله . فالشعر يمحوه من يهرب منه ويخلقه من يؤمن بوجوده :

« قال الحكيم [1] فى نفسه يوماً : إذا كنْتُ ابنَ السماء »

« فهل الشر كامنٌ فىّ — وهل هنالك — أيها الألم »

« قُطبان فى السماوات وروحان فى كيانى »

« والإلهان فى يَهْوَاه [2] » ه

---

(١) الحكيم : أى الملاك الساقط فى حالة بشريته . (٢) يهواه : هو الله بالعبرية Jéoveh

« ولـكنَّ روحَ الله رأى شكَّه فابتسم وعرج به »

« فى المنام إلى نقطة اللانهائى أين يمتدُّ النظر »

الإلـهى إلى البدايات والأوساط والنهايات »

« وقال له : أنظر . »

فنظر الانسان وفهم أنَّه وهو بين الظلمة والنور يكون فى الضّياء أو فى الظلام حسب مكانه من الارتفاع أو النزول . وبعبارة أشمل إنّ الإنسان قادر على تكييف حياته علواً أو سقوطاً حسب إرادته واستعداده وانه لا وجود للشر والقبح إلا فى عقل من لا يستطيع الفهم وفى عين من لا يستطيع النظر . فالانسانية فى حيرة ضميرها القاصر ، وعدم إدراكها للحقيقة المطلقة ، وفى الخصومة بين غرائزها المتناقضة تتردد فى مهبّ الأهْوَاء بين الرُّوحانية والحيوانية :

« وهكذا تتصارعُ فى قلبه طبيعتان »

« وهو بنفسه سببُ عظمةِ نفسه »

« هو حُرٌّ فى نزوله ، وحُرٌّ فى صعوده »

« ولـكنَّ حريته هاته تكون اما سببَ مجده أو عاره »

« فالصعودُ أو النزول هما السماء أو الجحيم »

تنزل فاذا بذلك الملاك السماوى مظلم جوانب النفس جامد الروح ، متألم الجسد وذلك هو الجحيم . وتصعد فاذا البعث ، واليقظةُ الروحيّة ، والمجد الحقيقى ، والجزاء الوفاق . وتلك هى السماء المحصل عليها بالألم المرضى به والتضحية المقبولة عن طيب خاطر .

وهكذا يغلب التفاؤل على هاته الفلسفة ويدور محورها على الرّضى بالألم الذى يرى فيه الشاعر أكبر باعث للجهد والنشاط وأعظم حاجز للسير نحو الكمال وخير مطهّر للنفس من أدرانها وحقاراتها :

« أنت تكوّنُ الإنسان أيها الألم كما تكوّن البوتقة »

« سبيكة الذهب ، وألسنةُ اللهيب قطعةَ الفولاذ »

« . . . انّ من لم يعرفك ما عرف من الدّنيا شيئاً »

« فهو يمشى فى الأرض على رؤدٍ ومَهَل »

« ولكنه ليس بحيّ فيها . »

وقد عدّ سانت بيف تلك القصيدة ملحمةً فرانسا ، وأمّل أن تكون للفرنسيين كالأُوديسى لليونانيين ولكنّ العناصر الخارجة عن الموضوع والتطويل الممل هو الذى جعل الناس يزهدون فيها رغماً عما فيها من القطع العالية حقاً سواءً فى الوصف أو فى التعبير عن أصدق العواطف وأعمق الحقائق ؟

تونس : محمد الحليوى

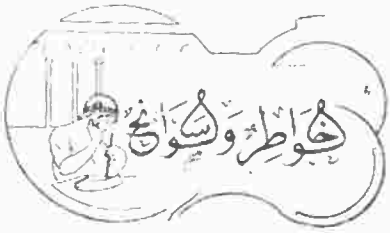

الطيور الصداحة والشعراء

(التعريف بأهمّها لمناسبة نقد العقّاد)

الكروان

بفتح الكاف والراء ، والأنثى كروانة . ويجمع على كِرْوان بكسر الكاف على غير قياس . وقال الفارسى : كِرْوان ليس بجمع كروان انما هو جمع كَرَأ والى هذا ذهب سيبويه وحكى انه يجمع على كراوين ، ويجمع أيضاً على كَرَوانات ، طائر فى قدر الدجاجة طويل الرجلين ، منعقف المنقار طويله ، حسن الصوت لاينام الليل

وذكره الدميرى قال « يشبه البط لاينام الليل يسمى بضده من الكَرَى » . وذكره ابن سيده فى مخصصه ص ١٥٥ ج ٨ قال : هو طائر بعظم الدجاجة غير أنه أسبط وأطول عنقاً واطول رجلين ، رأسه بعظم رأس الدجاجة وزمكّاه قصيرة وعيناه زرقاوان ،